

رَحْلَةُ ابْنِ جَبْرِ

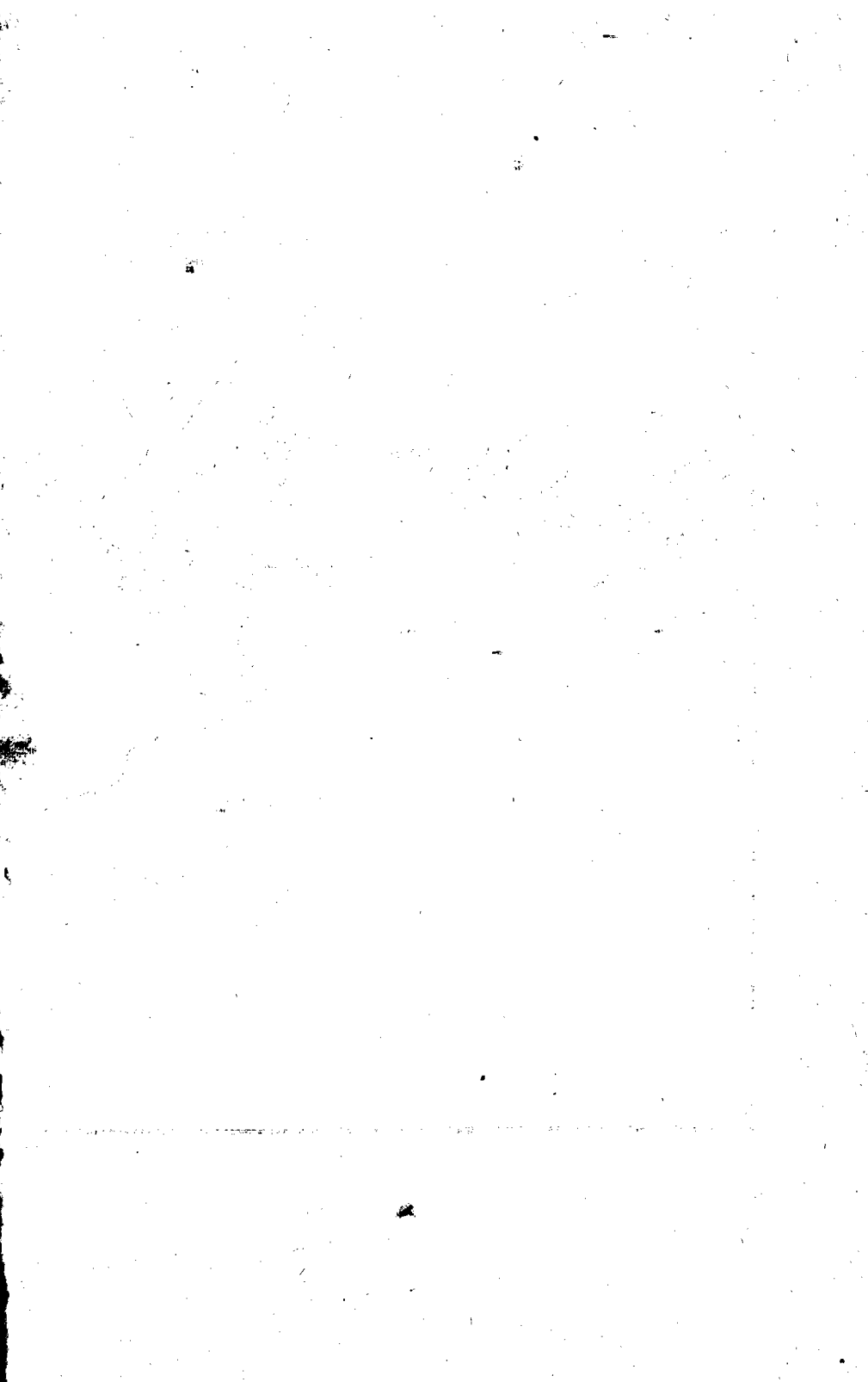
في مصر وبلاد العرب والعراق والشام ومصر

عصر الحروب الصليبية

مختص

دكتور حسين نصار

كلية الآداب بجامعة القاهرة



مقدمة .

هذا الكتاب رحلة قام بها أندلسي للحج ، استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصفاً ، من أول ساعة من يوم الاثنين التاسع عشر لشهر شوال ٥٧٨ هـ ، الموافق الثالث لشهر فبراير ١١٨٢ م ، إلى يوم الخميس الثاني والعشرين لمحرّم ٥٨١ هـ ، الموافق الخامس والعشرين لأبريل ١١٨٥ م . وزار فيها مصر و بلاد العرب والعراق والشام وصقلية .

ووصف هذا الرحالة المدن التي مر بها ، والمنازل التي حل فيها ، من هذه الأقطار جميعاً ، وصفاً يختلف إسهاباً وإيجازاً وفقاً لأهمية الموضع ، وتختلف المظاهر التي غنى بوصفها في المدن المتنوعة حيناً وتتفق حيناً آخر . فقد غنى في جميع المدن التي وصفها بالمساجد وقبور الصحابة والمشهورين والمستشفيات والآثار المعروفة . وغنى في مصر خاصة ببعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، وفي بلاد العرب بالناحية الدينية خاصة ، وفي العراق بالوعظ والوعاظ ، وفي الشام بالنواحي السياسية والاقتصادية والحروب بين المسلمين والصليبيين ، وفي صقلية بالمسلمين تحت حكم الملك غليوم . وطبيعي أنه التفت في كل مدينة بالأمر الذي اشتهرت به ، واهتم بوصفه ، كمنار الإسكندرية ، وأهرام القاهرة وأبي هولها ، ومقياس جزيرة الروضة ، ومعبد دندرة ، وآثار مكة الإسلامية ، والمسجد النبوي بالمدينة ، ومسجد الكوفة ، ونفط الموصل ، وقلعة حلب ، والمسجد الأموي بدمشق ، وما إلى ذلك . والحق أن الكتاب يتضمن بعض المعلومات التي لا يستغنى عنها مؤرخ أو جغرافي أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة الهامة في الشرق الإسلامي ، فهو يصور صلاح الدين الأيوبي صورة غاية في الجمال

تكشف عن المكانة التي احتلها هذا البطل في قلوب المسلمين في عصره؛ وصور العلاقات بين المسلمين والصليبيين في حربهم وسلمهم تصويرا ربما لا يجده في أكثر كتب التاريخ؛ وأبرز حال المسلمين في المناطق التي احتلها الصليبيون من الشام، وفي صفاية، في صورة واضحة دقيقة. وفي الكتاب إشارات إلى أشياء في حياة المشاركة وآدابهم، غاية في اللطف والطرافة، وكثير منها باق إلى يومنا. ويوضح الكتاب أن كاتبه رجل طيب القلب، سليم الطوية، ما أسرع ما يلجأ إلى الله في حال الرضى والغضب، والإعجاب والاستنكار، والأطمئنان والفرح. وقد يؤثر ذلك في أحكامه، فيفرط في شعوره، فكل ما يعجب به غاية لا يستطيع وصفها الواصفون، وعدد الحجاج، وكل ما يتكلم عنه، لا يحصيه إلا الله ولم يوجد مثله في أى عام آخر، فهو منساق مع عواطفه. ولكن هذا لا يفقده قدرته على التمييز، وتصديق الشائعات، ولو اتصلت بأمر ديني، بل يحاول التحقق، كما فعل فيما شاع عن بثر زمزم. وإن وقع في بعض أخطاء تاريخية، كتصديقه أن الحسن والحسين ولدا بمكة، وخالف المؤرخين في بعض أخبار أشعث إليها، ولا أدري من الصادق؟ وقادته غربته عن المشرق إلى الوقوع في أمور لها دلالتها، إذ يكتب أسماء بعض الأشخاص والمدن كتابة تختلف عن اصطلاح المشاركة، مثل الينبوع (ينبع)، و نابولس (نابلس) والدقيس (الذكر)، حتى لقد قضيت وقتا طويلا كل الطول في سبيل الوصول إلى كنه الاسم الأخير. وربما كان ذلك من الناسخ الأول، لأنه مغربي أيضا، فيما يرجح. وعن المؤلف في كل قطر نزل به تنقضى أحوال المغاربة فيه، وعلاقة أهله بهم، ووصف ذلك في رحلته وصفا مطولا.

ويتضح منذ السطر الأول أن المؤلف كان يدون مشاهداته على صورة حذ كرات لا كتاب متصل مطرد، ثم نسق هذه الحذ كرات وفقا لمرحلة الرحلة.

هو أو بعض تلاميذه كما يقول ابن الخطيب عن أبي الحسن الشاربي . فآثر ذلك في عبارة الكتاب وأسلوبه تأثيرا كبيرا . فهي عبارة عامية ، تتضمن كثيرا من الألفاظ التي لا ترضى عنها اللغة الفصيحة . والضمائر مختلفة ، لا تسير وفقا للقواعد العربية الفصيحة ، وإنما على القواعد العامية ، وخاصة في المثنى ، الذي يعامل كالمؤنث في أغلب المواضع .

والعبارات منفصلة ، لا ترابط بينها في كثير من الأحيان ، حتى اضطرت المحقق الأول للكتاب ، واضطرت بعده ، إلى زيادة كثير من واوات العطف ، لترتبط الجمل ، وتتضح معانيها .

وينسى أشياء ، فيضطر إلى إلحاقها في غير موضعها ، كما فعل في وصفه للعدن المصرية . وبرغم ذلك ، يفتح الكلام عن المدن الهامة ، بفقرة مجودة بمجمل ، تزين بالسجع والجناس ، ويضمن كلامه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وينثر فيه بعض الشعر . وقد أعجب بعبارة المتأخرون ، فأكثر الشريشي تلميذ المؤلف من اقتباسها في شرح مقامات الحريري ، واستعار منها المقرئ والمقرئزي وغيرها .

واختلِف في عنوان هذا الكتب ، فجعله حاجي خليفة «رحلة الكنانى» . ويبتدئ المخطوط بعبارة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» التي قد تكون عنوانا للكتاب ، وقد لا تكون ، فلا تغنى غير ما نعينه اليوم بكلمة «مذكرات» . وينتهى بعبارة «كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والناسك» ، وشك «رايت» في كونها عنوان الكتاب . ولهذا الشك أثر أن يقدمها بالعنوان المشهور «رحلة ابن جبير» ، وتابعته في ذلك ، أخذنا بالأسلم والأعرف .

ولاشك أن الكتاب ذو أهمية كبيرة ، جعلت المستشرقين يعنون به ،
 ويطبعونه غير مرة . فقد حققه وليم رايت (William Wright) عام ١٨٥٢م ،
 ثم راجع هذه النسخة المحقق نفسه ، ودوزى Dozy ، وروبرتسون سمث
 (Robertson Smith) ، ونقحها وطبعها دي غويه (De Goeje) عام ١٩٠٧م ،
 وحقق أماري (Amari) الجزء الخاض بصقلية من الرحلة ، وترجمه ، ونشره
 في المجلة الآسيوية (Journal Asiatique) ، المجموعة الرابعة ، المجلد ٦ ، ٧ ،
 وعلق على ترجمته الشيخ طنطاوى ، وترجمها إلى الإيطالية كلستينو شياپرلى
 (Celestino Schiaparelli) عام ١٩٠٦م . وطبع في مصر على النسخة الأوربية
 طبعة غاية في الرداءة وعدم العناية . واليوم يطبع ثانية في مصر على النسخة
 الأوربية أيضا ، مع محاولة تحقيقه تحقيقا علميا دقيقا ، وملافاة ما لعله فات
 الطبقات السابقة من أخطاء .

وقد حقق « رايت » نسخته على مخطوط وحيد ، محفوظ بمكتبة الجامعة في
 ليدن . وهو يضم ٢١٠ صفحات ، وكتبه في مكة من يسمى عبد القادر بن
 عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشى عام ٨٧٥ هـ ، عن نسخة مغربية في أغلب
 الظن . ويبدو أن الناسخ لم يحسن قراءة كثير من الألفاظ فحرفها ، وخلط
 بين بعض الحروف وبعض ، مثل الباء والياء ، والتاء والثاء ، والقاف والفاء ،
 والباء والقاف ، والضاد والطاء ، والحاء والضاد ، وغيرها . وقابل الناسخ نسخته
 بأخرى ، وكتب الاختلافات على الهامش ، ولكن يبدو أنه لم يكن دقيقا
 في تلك المقابلة ، ولم يستقصها استقصاء كاملا . وقد أدخلت هذه التهميشات
 في تعليقاتى ، مع الرمز إليها بحرف (هـ) .

واعتمد رايت في تحقيق الكتاب على المراجع التالية :

١ - العبدري ، الذى قام برحلة من السويس الأقصى في المغرب للحج
 عام ٦٨٨ ، واقتبس من ابن جبير في وصف المدينتين المقدسة فخرتين أو ثلاثا .

٢ - القاضي أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، الذى حج عام ٧٣٦ ، ووصف حجه فى « كتاب تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » ، واستعار كثيرا من كلام ابن جبير دون أن يذكره ، وخاصة فى وصف الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة . وأشرت إليه بالحرف (ب) .

٣ - ابن بطوطة ، الذى ذكر ابن جبير فى حلب ودمشق خاصة ، وأشرت إلى رواياته بالرمز (بط) .

٤ - المقرئ ، وأفاد من ابن جبير فى الخطط والآثار ، فى وصف إخميم وعيذاب خاصة ، وفى السلوك أيضا .

٥ - الفاسى ، الذى استعار منه فى كلامه عن الضرائب المفروضة على الحجاج فى عيذاب خاصة ، فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » .

٦ - المقرئ ، الذى استعار فى كتابه « نفح الطيب » كثيرا من ابن جبير ، مع التصرف فى عبارته .

٧ - الشريشى ، تلميذ ابن جبير ، الذى اعتمد عليه كل الاعتماد ، واستعار منه كثيرا فى شرحه لمقامات الحريرى ، وأشير إليه بالحرف (ش) .

والحق أن الكتاب عنى به عدد من كبار المستشرقين ، فدرسوه دراسة دقيقة ، وكانت لهم عليه التعليقات النافعة ، ولذلك تعتبر النسخة الأوربية من أحسن الكتب التى وقف المستشرقون على طبعها .

ومؤلف الكتاب هو محمد بن أحمد بن جبير الكنائى الأندلسى ، البلبلى الأصل ، الفرناطى الاستيطان . ولد ببلبلى أو بشاطبة ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ أو سنة ٥٣٩ هـ ، وتوفى بالإسكندرية ليلة الأربعاء التاسع أو السابع والعشرين لشعبان سنة ٦١٤ هـ . وكان أديبا بارعا ، شاعرا مجيدا ، سرى النفس ، كريم الأخلاق ، من علماء الأندلس بالغة الفقه والحديث .

روى بالأندلس عن أبيه ، وأبي الحسن بن محمد بن أبي العيش ،
 وأبي عبد الله بن أحمد بن عروس ، وابن الأصيلي ، وأخذ العربية عن أبي
 الحجاج بن يسعون ؛ وبسبته عن أبي الوليد بن سبكة ، وأبي إبراهيم إسحاق بن
 إبراهيم النساني التونسي ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى التميمي ؛ وبمكة
 عن أبي حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشي الميثاشي نزيل مكة ، وأبي جعفر
 أحمد بن علي القرطبي الفسكي ؛ وببغداد أبي الحجاج يوسف بن أحمد البغدادي ،
 وصدر الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندی ، وابن الجوزي ؛ وبدمشق
 أبي الحسن أحمد بن حمزة بن علي السلمي الجوارى ، وأبي سعيد عبد الله بن محمد
 ابن أبي حصرون ، وأبي الطاهر بركات الخشوعي ، وعماد الدين محمد بن محمد بن
 حامد الأصبهاني ، وأبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن عساكر ،
 وأبي الوليد إسماعيل بن علي بن إبراهيم ، والحسين بن هبة الله بن محفوظ
 الرنبي ، وعبد الرحمن بن إسماعيل الصوفي ؛ وبحران أبي البركات حيان بن
 عبد العزيز وابنه .

وأخذ عنه أبو إسحاق بن مهيّب ، وابن الواعظ ، وأبو تمام بن إسماعيل ،
 وأبو الحسن بن نصر بن فاتح البجائي ، وأبو الحسن الشاربي ، وأبو سليمان بن
 حوط الله ، وأبو زكريا ، وأبو بكر يحيى بن محمد بن أبي الغمر ، وأبو عبد الله بن
 حسن بن مجبر ، وأبو العباس بن عبد المؤمن البناي ، وأبو محمد بن الحسن اللوابي
 ابن تاهيت ، وابن محمد الموروري ، وأبو عمرو بن سالم ، وعثمان بن سفيان بن
 أشقر التميمي التونسي ، ورشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله ،
 ورشيد الدين بن عطار ، وفخر القضاة بن الجباب ، وابنه جمال الدين .

وتألف مصنفاته من رحلته ، وشعره ، وكان له مجلد من الشعر على قدر
 ديوان أبي تمام ، وجزء في رثاء زوجته أم المجد سماه « نتيجة وجد الجوانح » ،

في تباين القرين الصالح » ، وجزء آخر في شكوى الزمان والأصدقاء سماه :
 « نظم الجمان ، في التشكي من إخوان الزمان » . وقال أبو الحسن الشاربي عن
 رحلته : « إنها ليست من تصانيفه ، وإنما قيد معاني ما تضمنته ، فتولى ترتيبها
 وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ما تلقاه » . وكتب في سبته لأبي سعيد
 عثمان بن عبد المؤمن ، وبغرناطة لغيره من ذوى قرابته ، وله فيهم أمداح كثيرة .
 وقيل عن شعره ونثره : « نظمه فائق ، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل
 حسن ، وأغراضه جلييلة ، ومحاسنه ضخمة » . ولا زال بعض شعره ونثره باقيا
 في الكتب التي ترجمت له ، وهو شعر علماء وفقهاء ليس ذى قيمة كبيرة ،
 ونثره أجهل من شعره . ومن أشهر شعره قصيدته التي نظمها حين شارف
 المدينة المنورة ، وقال فيها :

أقول وآنسْتُ بالليل نارا	لعل سراج الهدى قد أنارا
وإلا فما بال أفق الدجى	كان سنا البرق فيه استطارا
ونحن من الليل في حندس	فما باله قد تجلى نهارا
وهذا المسك شذا المسك قد	أعير أم المسك منه استعارا
وكانت رواحنا تشكى	وجأها فقد سبقتنا ابتدارا

ولم يقيم ابن جبير برحلة واحدة ، بل بثلاث ، قيل : « رحل ثلاثا من
 الأندلس إلى المشرق ، وحج في كل واحدة منها . فصل عن غرناطة أول
 ساعة من يوم الخميس ، لثمان خلون من شوال سنة ٥٧٨ . . . وصف الرحلة
 المشهورة . . . ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس . . . قوى عزمه على
 أعمال الرحلة الثانية . فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من
 ربيع الأول من سنة ٥٨٥ ، ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت
 من شعبان سنة ٨٧ . وسكن غرناطة ثم مالقة ثم سبتة ثم فاس ، منقطعا إلى

إسماع الحديث والتصوف ، وتروية ما عنده . . . ثم رحل الثالثة من سبته بعد موت زوجته عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي ، وكان كلفه بها جما ، فعظم توجده عليها . فوصل مكة ، وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر والإسكندرية . فأقام يحدث ويؤخذ عنه ، إلى أن لحق بربه . » .

وكان سبب رحلته الأولى أن أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة استدعاه ، ليكتب له كتابا « وهو على شرا به . فمد يده إليه بكأس ، فأظهر الانقباض ، وقال : يا سيدى ، ما شربتها قط ! فقال : والله لتشربن منها سبعا . فلما رأى العزيمة ، شرب سبع أكؤس . فلأله السيد الكأس من دنائير سبع مرات ، وصب ذلك فى حجره . فحمله إلى منزله ، وأضر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير . ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة ، فأسعفه . وباع ملكا له تزود به ، وأفق تلك الدنانير فى سبيل البر . » .

ورافق ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان بن أحمد بن الحسن القضاعي ، وأصله من أندية من عمل ببلدسية ، وسمع معه بعض الشيوخ فيما مرا عليه من بلاد . وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب ، وله فيه تقييد مفيد ، مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم . وكتب للسيد أبى سعيد بن عبد المؤمن ، وجده لأمه القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية . وتوفى بمراكش سنة ٨ أو ٥٩٩ ، ولم يبلغ الحسين . ولم يذكر المؤلف فى رحلته غير ثلاث مرات . وذكر أيضا أن أبا جعفر بن سعيد الفقيه كان ينزل معه فى مكة ، ثم قابله فى جزيرة الراهب عند العودة .

ولانى إذا أقدم هذه الرحلة إلى القارئ العربى ، أرجو أن تحتل المكانة الخلية بها ، وأن تقييد فى كشف بعض الجوانب لمعروفة مجتمعتنا الإسلامى فى

عصر الحروب الصليبية . وإني لأهدى شكرى الخالص إلى أستاذى الجليل
« مصطفى السقا » الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، الذى جنبنى كثيرا
من الأخطاء التى كنت على وشك الوقوع فيها ، وأهدى شكرى إلى المشرفين
على « دار مصر للطباعة » و « مكتبة مصر » الذين بذلوا جهدهم لإخراج
الكتاب فى صورة صحيحة دقيقة .

دكتور حسين نصار

٢٧ رمضان ١٣٧٤ هـ

١٩ مايو ١٩٥٥ م

محتويات الكتاب

١	— مقدمة
١	٢ — الرحلة: في الأندلس
٢	في شمال أفريقيا
٢	في البحر الأبيض المتوسط
٧	مصر
٤٦	البحر الأحمر
٤٩	بلاد العرب
١٨٩	الرحلة إلى العراق
٢٣٦	الشام
٣٠٠	ركوب البحر
٣١٣	صقلية
٣٤٠	٣ — قاعة بالألفاظ العامة أو الدخيلة
٣٤٧	٤ — الشهور الميلادية
٣٤٨	٥ — فهرس المواضع
٣٥٦	٦ — فهرس الأعلام والجماعات
٣٦٥	٧ — خريطة الرحلة